نظريَّة عمارة الأرض في الإسلام.

The theory of land reconstruction in Islam.

✍ **اسم ولقب المؤلف:** د. مفتاح فرج عبد السميع بو الحمزيَّة

الدرجة العلمية والوظيفة: أستاذ مشارك بقسم الدِّراسات الإسلاميَّة، كلِّية الآداب، جامعة عمر المختار.

البريد الإلكتروني: moftah.alhmzia@omu.edu.ly

جميع حقوق محفوظة للمؤلف)المؤلفون(، وتخضع جميع البحوث المنشورة بالمجلة لسياسة الوصول المفتوح (المجاني) ويتم توزيعها بموجب شروط ترخيص إسناد المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0).

الملخص :

إنَّ علم النَّظريات الفقهيَّة أضحى من العلوم الشرعيَّة التي اتجهت إليها همم الباحثين؛ لما وجدوا فيه من نُظُم ومبادئ كانت منتشرة بين النُّصوص القرآنيَّة، والأحاديث النبويّة، فجمعوا النَّظير إلى نظيره، واستخرجوا تلك النصوص التي تتحدَّث عن موضوع واحد، وأمعنوا فيها النَّظر، فخرجوا بنظريات متكاملة الأركان والشروط، تُيسِّر على الناس أمر معاشهم، وتعينهم على تطبيق شرع ربهم.

وإعمار الأرض من ضمن المواضيع التي تناولتها النصوص في مواضع متعددة، تارة بالمدح والحثِّ عليها، وتارة بالذمِّ والنَّهي عنها، وفي كل ذلك تذكر شروط الأول وضوابطه، وأسباب الثاني والآثار المترتبة على كل منهما، فحاولت من خلال هذا البحث أن أجمع تلك النصوص مبيّناً نواحي هذه النظرية من خلال مقدِّمة وأربعة مطالب وخاتمة، كان المطلب الأول عن عمارة الأرض بين الإنسان والكائنات الأخرى، بينما تحدَّث المطلب الثاني عن شروط إعمار الأرض، وكان الحديث في المطلب الثالث عن عقوبة الإفساد في الأرض، وأخيراً آثار إعمار الأرض في المطلب الرابع.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الإسلامية، العمارة الإسلامية، بناء المدن، فقه البنيان.

Abstract:

The science of jurisprudential theories has become one of the legal sciences to which the researchers tended, because of the systems and principles they found in it that were spread among the Qur'anic texts and the hadiths of the Prophet, so they gathered the analogy to its counterpart, and extracted those texts that talk about one subject, and examined them carefully, so they came out with integrated theories of elements and conditions It facilitates people's livelihood and helps them implement the law of their Lord.

And the reconstruction of the earth is among the topics dealt with by the texts in various places, sometimes by praising and urging them, and sometimes by slandering and forbidding them, and in all of that mentioning the conditions and controls of the first, and the reasons for the second, and the effects of each of them, so I tried through this research to collect these texts, indicating aspects This theory is through an introduction, four demands, and a conclusion. The first requirement was about the construction of the land between man and other beings, while the second requirement talked about the conditions for the reconstruction of the land, and the discussion in the third was about the punishment of corruption in the land, and finally the effects of the reconstruction of the land in the fourth requirement.

Keywords: Islamic civilization, Islamic architecture, building cities, jurisprudence of structures.

مقدِّمة

الحمد لله الَّذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوَّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه وما يسَّره له من رزقه، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً، ونبّه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه، فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله، ويسّر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، ليس لأَوَّلِيَّتِهِ ابتداءٌ، ولا لآخِرِيَّتِه انقضَاءٌ، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الواصفون، ولاَ يُحيطُ بأمرِهِ المُتَفَكِّرونَ، يَعتَبِرُ المتفَكِّرونَ بآياته، ولا يَتَفكَّرونَ في مَاهِيَةِ ذاتِه، ولا يُحيطون بشيءٍ من عِلمه إلاَّ بِما شاء وَسِعَ كرْسِيُّه السَّموات والأرض، ولا يؤُودُه حفظُهما وهو العليُّ العَظيمُ. العالِمُ الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَدِيرُ، السَّمِيعُ البصيرُ، العَلِيُّ الكَبيرُ[1].

خلق كل شيء فأحسن خلقه، وهداه إلى ما فيه صلاحه ورفده، وبعث إلى الناس أشرف خلقه، ليبيّنوا لهم الطريق، وليخرجوهم من الظلمات إلى النور، وهم في الوقت نفسه حجة عليهم، فقد قال عز من قائل : {رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً (164) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (165)} النساء: 164-165.

صلى الله عليهم أجمعين، وختمهم بأفضلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار، فهدى به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة، وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغي والارتياب، ففتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صمَّاً، وقلوباً غلفاً، فاستنارت لها الطرق، وانفتحت الأبواب، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، ففتح القلوب بالإيمان والقرآن.

وكانت معجزته العظمى، وآية نبوته الكبرى، ما حباه به خالقه من تنزُّل هذا الكتاب العظيم على قلبه ليكون من الموقنين، بشيراً ونذيراً، وهادياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، أخرص ألسنة البلغاء، وحيّر عقول الحكماء، وتحداهم بأفصح مقال، فعجزوا عن مجاراته بآية واحدة، فضلاً عن أن يأتوا له بمثال.

وقد حوت هذه الآيات العجيبة أنظمة وبرامج متناسقة، متكاملة، لا تناقض فيها، ولا نقص، تنظم حياة الناس في جميع مناحيها.

والعجب الذي لا ينقطع أنه لم يأت على عادة الناس في التصنيف والتأليف؛ بأن يجعل لكل نظام باباً خاصاً، ويفرد العقيدة بقسم مستقل، ويتناول القصص في قسم آخر، ويضع الأحكام الشرعية بمنأى عن كل ذلك، لم يفعل القرآن كل ذلك! بل مزج بين تلك المعاني، ووضعها في قالب واحد متناسق، لا تكاد تميّز بينها، يذكر في ثنايا القصص أحكاما شرعية، ومواعظ وسلوكيات، ويدحض في الوقت نفسه تلك الشُبَه والضلالات التي علقت بالعقيدة، ويلمح إلى أساسيات وقواعد أنظمة حياة الناس وشروطها في مواضع متعددة، لكي يستحث العقول على التفكر، ويشحذ الهمم إلى استخراج تلك الكنوز، فيجمعون ما تناثر منها في أثناء هذا الكتاب العظيم، فيقفوا أمام بناء شامخ سامق، لا عوج فيه ولا خلل، ولا تناقض بين أجزائه، ولا نقص، وكل هذه الأنظمة والنظريات، والأحكام والقصص، والحكم والمواعظ مما حواه هذا الكتاب العظيم تشكل معًا فسيفساء رائعة، وبهجة للعين والفكر، ومتعة ولذة للقلب، فهو كما أخبر عنه رسول الله ﷺ، فيما يرويه علي بن أبي طالب - ﷺ - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ألا إنها ستكون فتنةٌ)، قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: (كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء،

[1] - ينظر: مقدمة الرسالة، ابن أبي زيد القيرواني، دار الفكر، ص5-6.

ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدا} الجن: 1-2، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هُدِي إلى صراطٍ مستقيم)[2].

وقد حاول كثير من العلماء سبر غور كتاب الله، هذا البحر الكبير، والمصدر الثري، كلٌّ في مجاله، وما وصل إليه علمه، فأخرجوا لنا بعض تلك اللآلئ الحسان، التي تفوق في حسنها وبهائها الياقوت والمرجان، فجمع لنا علماء الأصول نظريات فقهية عظيمة، متكاملة الأركان، ومتناسقة البنيان، بشروطها وضوابطها، من خلال آيات القرآن العظيم، كنظرية الحق، ونظرية المؤيدات الشرعية، ونظرية الأهلية والولاية، ونظرية العرف، وغيرها.

وهذا في الحقيقة كان دافعاً لي على مجارات هؤلاء العلماء، والسَّير على منوالهم مع قلة الزَّاد وضعف الراحلة، ولكن إسهاماً في هذا الباب من باب جهد المُقِل، وكما قالوا: من سار على الدَّرب وصل.

فنظرت – بنظري القاصر-إلى آيات الذكر الحكيم، وهي تتحدَّث عن إعمار الأرض، وتسرد علينا أحوال الأمم السابقة، وتعاملهم مع ما سخره الله لهم في هذه الحياة الدنيا، فتارة تمدح فعلهم وتارة تذُّمه، وفي أحيان أخرى تشير إلى أنه أمر جِبلِّيٌّ فطريٌّ تشترك فيه كل الكائنات، والدوّاب.

فتيقنت أن مجمل تلك الآيات تشير إلى نظام متكامل في قضية إعمار الأرض، فقرَّرت دراسة هذه القضية، وبيان حدودها، وما يتعلق بها، في بحث وسمته بـ **(نظرية عمارة الأرض في الإسلام)**.

وقد انتهجت في ذلك المنهج الاستقرائي بجمع كل الآيات التي تناولت إعمار الأرض، وتسخيرها، والاستفادة من خيراتها، ثم قمت بفرزها والترجيح بينها وفق ما يخدم هذه النظرية، ويضبط مفاهيمها، وأركانها وضوابطها، وكان المنهج المقارن هو الأنسب لهذا العمل، حيث أعرض النصوص القرآنية وأقارن بينها من حيث ملاءمتها للمقصود، فأثبت ما كان أكثر ملاءمة من غيره، وقد أستفيد في هذا الشأن ببعض النصوص الحديثية.

واخترت لنفسي منهجية محددة في النقاط الآتية:

_ كتابة الآيات وفق مصحف المدينة بالرسم العثماني على قراءة عاصم بن أبي النجود برواية حفص، وقد خرَّجت الآيات بالمتن لخصوصية القرآن الكريم، وحتى لا أثقل الهامش.

- تخريج الأحاديث والآثار من كتب الحديث المعتمدة، فإذا ورد الحديث في أحد الصحيحين أو موطأ الإمام مالك اكتفيت به، وإلا رجعت إلى بقية كتب الحديث ككتب السنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم.
- وضعتُ الاقتباس بالنص بين قوسي التنصيص وأذكر المرجع أو المصدر بدون كلمة (ينظر)، وإذا كان بالمعنى أكتبه بدون أقواس التنصيص، واذكر المرجع مُصدَّراً بكلمة (ينظر)، وعند ذكر المرجع لأول مرة سأذكر عنوان الكتاب، واسم المؤلف، وبيانات النشر، والجزء والصفحة، ثم في بقية النقولات عنه سأكتفي بعنوان الكتاب واسم المؤلف والجزء والصفحة فقط، وإذا تكرر في الصفحة نفسها بدون فاصل أكتب (المرجع نفسه)، وإذا تكرَّر أول الصفحة التالية أكتب (المرجع السابق).
- عند دراسة المسألة أذكر ما ورد فيها من نصوص قرآنية أولاً، وقد أعضدها ببعض الأحاديث النبويّة، ثم بعد ذلك أشرع في التحليل والبيان، وتقرير النتائج والثمرات.

[2] - سنن الترمذي، محمد بن عيسى، الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ 4، 5)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395 هـ- 1975م ، رقم الحديث 2906، 172/5.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

- كشف اللثام عن هذه النظرية، بوضع لبناتها الأولى، وفتح المجال أمام الباحثين في دراستها، ونقدها، وفق ما يظهر لهم.
- حثُّ طلبة العلم على تدبر آي القرآن الكريم، واستخراج ما فيها من كنوز ومعارف، وعرضها للبحث والتدقيق، حتى تتناولها العقول، وتتناوب عليها الفهوم؛ لكي تصل إلى الحقائق الثابتة، وهذا كان دأب علمائنا فيما سبق، جزاهم الله عنا خيراً.
- التعريف بمنحى من مناحي إعجاز القرآن الكريم، ورد الشبهات عنه، بدعوى تفكك النص القرآني، التي أصبحت تثار اليوم في بعض الأوساط التي يطلق عليها زوراً وبهتاناً بأنها علمية.

إن الكتابة في أمر لم يمهد له من سبق لهو في غاية الخطورة، ومرتقى صعبٌ لا ينال بسهولة، ولا تنقاد لك معانيه وتلتئم مراميه، على ما تختار، وتميل إليه النفس، فإنك ستجد نفسك في مواجهة نصوص مجردة، ولا معين لك على فهم ظواهرها فضلاً عن مضامينها إلا بالالتجاء إلى الله تعالى بالتوفيق والسداد، والبعد عن الزيغ والضلال.

وقد وضعت خطة وفق ما توفر لدي من نصوص لدراسة هذه النظرية على النحو الآتي:

مقدمة، وتمهيد، وأربعة مطالب وخاتمة.

فالمقدِّمة حوت أهم عناصرها من أهمية الموضوع، والتسمية، وسبب الاختيار، والأهداف، والمنهج المتَّبع، والمنهجية، والصعوبات، وخطة الدراسة.

أما المطلب الأول فكان عن عمارة الأرض بين الإنسان والكائنات الأخرى، في نقطتين؛ الأولى تدرس فطرية عمارة الأرض بالنسبة لبقية الكائنات، بينما في الثانية يتبين أن عمارة الأرض للإنسان هي منّة من الله وابتلاء.

والمطلب الثاني سيكون الحديث فيه عن شروط إعمار الأرض، و الاستخلاف فيها.

أما عقوبة الإفساد في الأرض فستكون موضوع **المطلب الثالث**.

بينما سيكون **المطلب الرابع** عن آثار عمارة الأرض.

وأخيراً **الخاتمة** التي ستذكر فيها أهم النتائج، والتوصيات التي يراها الباحث خادمة للباحثين وطلاّب العلم.

وأخيراً؛ يظل هذا عملاً بشرياً، يعتريه النقص والعيب، ويحتاج إلى تصحيح وتعديل بلا ريب، من ذوي العقول الخيّرة، والأفهام النيّرة، فطوبى لمن بيّن الخلل، وأصلح الخطل، وستر العيب، وأهدى لمصنفه دعوة بظهر الغيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا.

تمهيد: نظرية عمارة الأرض أصول ومفاهيم

أولاً: توطئة عن النظريات الفقهية:

قبل الخوض في نظرية عمارة الأرض وما يتعلق بها من أصول ومفاهيم، يكون من الأفضل التقديم بين يدي ذلك بتوطئة للنظريات الفقهية، فإنه قد علق بأذهان البعض أن هذه النظريات من ابتكار الفقهاء في أغلب الأحوال، وإذا عرض عليهم إنسان نظرية فقهية إسلامية من النظريات التي لم يعرفها علماء القانون الوضعي إلا أخيرًا أدهشهم أن يصل الفقهاء المسلمون في القرن السابع والثامن الميلادي إلى ما لم يصل إليه علماء القانون إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

بل وصل بهم الأمر إلى أن قالوا إنهم سبقوا بتفكيرهم الفكر البشري، والصحيح أن رجال الفقه الإسلامي على اتساع أفقهم وجودة تفكيرهم لم يأتوا بشيء من عندهم، ولم يكونوا فوق مستوى البشر وكل ما في الأمر، أنهم وجدوا أمامهم شريعة غنية بالنظريات والمبادئ، فشرحوا هذه المبادئ، وعرضوا تلك النظريات، ولم يفعلوا شيئًا أكثر مما يفعله كل فقيه ومجتهد، يحاول أن يجمع تحت كل نظرية ما تمتد إليه، وتحت كل مبدأ ما ينطبق عليه وإذا كان هناك ابتكار، أو سبق في التفكير، فهو ابتكار لشريعة سبقت تفكير البشر، وجاءت بأسمى النظريات، لتوجيه البشر نحو السمو والكمال، ورفعهم إلى مستوى الشريعة الرفيع.

فالفقهاء لم يبتكروا نظرية المساواة المطلقة، ولا نظرية الحرية الواسعة، ولا نظرية العدالة الشاملة، وإنما عرفها الفقهاء من نصوص القرآن والسنة فقد قالﷻ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }[البقرة:256]، وقال أيضاً: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]، وقالﷺ: («يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ» ، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ)[3].

والفقهاء لم يخلقوا نظرية الشورى، ولكن استنبطوها من نصوص كثيرة منها قوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:38] وكذلك قوله تعالى: { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: 159] ، ولاهم من وضعوا نظرية تقييد سلطة الحاكم واعتباره نائبًا عن الأمة، ولكن فهموا ذلك من نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }[النساء: 59] فلم تكن له طاعة مستقلة، بل طاعته مرتبطة بطاعة الله ورسوله، وكقولهﷺ: (إنما الطاعة في المعروف)[4] .

ولا نظرية مسؤولية الحاكم عن أخطائه وعدوانه، بل وجدوا ذلك في آيات كثيرة تبين مسؤولية كل فرد عن تصرفاته كقوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: 164]، وقولهﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[5]..

والفقهاء ليسوا هم الذين اشترطوا الكتابة في الالتزامات المدنية، وجاوزوا الإثبات بشهادة الشهود في المواد التجارية وإنما هو نص القرآن:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} [البقرة: 282]

---

[3]- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ- 2001م، رقم الحديث 23489، 474/38.

[4]- الجامع الصحيح، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، رقم الحديث 7145، 63/9.

[5]- المصدر نفسه، رقم الحديث 893، 5/2.

والفقهاء لم ينشئوا نظرية بطلان عقود الإذعان ونظرية حق الملتزم في إملاء شروط العقد، وإنما القرآن هو الذي جاء بهذا كله في قوله تعالى: {وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ} [البقرة: 282].

والفقهاء لم يضعوا نظرية إعفاء المكره والمضطر؛ وإنما جاءت الشريعة بالنظرية في قوله تعالى: إ{لَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦]، وكذلك قوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:173]، وقول الرسول - ﷺ -: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[6].

والفقهاء لم يأتوا بنظرية إعفاء الصغير والمجنون والنائم من العقاب، وإنما قول الرسولﷺ: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ)[7] هو أساس هذه النظرية.

وهكذا لا نجد نظرية ولا مبدأً عامًا إلا جاء فيه نص من القرآن أو السنة، وما فعل الفقهاء شيئًا إلا أنهم شرحوا النظرية أو المبدأ، وبيّنوا شروط تطبيق كل نظرية أو مبدأ، وما يدخل تحتهما مقيدين أنفسهم في ذلك بنصوص الشريعة ومبادئها العامة وروحها التشريعية. على أن الفقهاء بالرغم من هذا قد بذلوا مجهودًا عظيمًا في رد الفروع والجزئيات إلى أصولها، وبيان ما ينطبق عليها من الأحكام؛ لأن الشريعة لم تأت بنصوص تفصيلية تحكم الفروع والجزئيات في كل الأحوال.

هذا هو حكم الواقع والحق في الردّ على الادعاء بأن الفقه الإسلامي من ابتكار الفقهاء، ولعل أصحاب هذا الادعاء وقعوا في الخطأ من جهة أنهم يقيسون فقه الشريعة على فقه القانون، فكل أحكام القانون يبتكرها علماء القانون قبل أن تكون أحكامًا ملزمة، وتشريعًا ساريًا.

هذه التوطئة متعلقة تعلقاً وثيقاً بعنوان هذا البحث الذي يتحدث عن نظرية إعمار الأرض، فإن نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة قد وضعت أساليب وطرق إعمار الأرض، وبيّنت ما يجوز منها وما لا يجوز تصريحاً أو تلميحاً، وضوابط ذلك كله، وما يجب لها من شروط، وما يترتب عليها من آثار، وليس لي في ذلك إلا جمع هذه النصوص، وتصنيفها وفق معالجتها لهذا الأمر، واستخراج ما يمكن أن يصلح لبناء هذه النظرية.

ثانياً: أصول نظرية عمارة الأرض:

تحدثت نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة عن عمارة الأرض، واستخلاف بني آدم فيها، وجعلها مأوى وسكناً لهم في هذه الحياة الدنيا، وذُللت لهم؛ لاستخراج خيراتها، والاستمتاع بها، ولكن كل ذلك وفق حدود حدها الشرع الحكيم، بحيث لا يهمل جانب الاستعمار والخلافة في الأرض، وينعم الناس بما في هذه الأرض من الكنوز والخيرات، دون أن يكون ذلك هو شغلهم الشاغل، وهمهم الأعلى، فينفقوا فيه الأوقات، ويستنفذوا من أجله الطاقات، وينصرفوا به عن الغاية العظمى من خلقهم وهي تحقيق عبودية الله، والقيام بما كلفهم به المولى في هذه الحياة الدنيا؛ بجعل الدنيا مزرعة للآخرة، فقد قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [لذاريات: 56].

وكذلك نهت بعض تلك النصوص عن الإفساد في الأرض بجميع أنواعه، في الإنسان والبنيان، في الجمادات والدوّاب، فنهت عن القتل، وسفك الدماء بغير وجه حق، وإفساد الأخلاق، وتغييب العقل، وتخريب المباني، والتعدي

---

[6] - سنن ابن ماجه، ابن ماجة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ-2009م، رقم الحديث 2045، 201/3.

[7] - مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث 24694، 41/ 224.

على الأراضي بما يفسدها، وتعذيب البهائم، واستعمالها في أعمال فوق طاقتها، وعدم الاهتمام بأكلها وشربها، وغير ذلك كثير.

ومن هذا المنطلق فإن عمارة الأرض تشكل نظرية متكاملة، تحوي نظاماً فقهياً شاملاً لكل مقتضيات هذه العمارة، من مفاهيم، وأقسام، وأدلة، وأسباب، وشروط، وآثار، ومن خلال جزئيات هذا البحث ستأتي كثير من الأدلة تؤيد ما سبق قوله.

ثالثاً: المفاهيم المتعلقة بهذه النظرية:

«العَمَائرُ: جَمْعُ عِمَارَةٍ، بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ، فَمَنْ فَتَحَ فَلالْتفاف بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ كالعَمارة العِمامةِ، وَمَنْ كَسَرَ فلأَن بِهِمْ عِمارةَ الأَرض، وَهِيَ فَوْقَ البَطْن مِنَ الْقَبَائِلِ، أَولها الشَّعْب ثُمَّ الْقَبِيلَةُ ثُمَّ العِمارة ثُمَّ البَطْن ثُمَّ الفَخْذ»[8].

العمارة لغة: عمارة الارض: «إحياؤها بالبناء أو الغرس أو الزرع»[9].

والعمارة من مفهوم إسلامي هي أوسع من ذلك بكثير، فهي لا تعني فقط زراعة الأرض، والبناء عليها، بل تشمل بناء الإنسان المؤهل لعمارة هذه الأرض، ولذلك عندما قال المولى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[البقرة: 30]، استفهمت الملائكة: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} [البقرة: 30].

وسبب هذا الاستفهام أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك؛ لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، أو أن الله ﷻ أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله ﷻ من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً: الاستخلاف والعصيان[10]، وحق للملائكة أن يستعظموا ذلك؛ إذ كيف يحوّل المُنعَم عليه النعمة إلى نقمة، ويعصي أوامر المُنعِم، ويفسد في الأرض بدل إصلاحها!!

وقد أخبرهم المولىﷻ بأنه يعلم كل شيء، ويعلم أن من بين بني آدم المصلحين والمفسدين، وأنهم مأمورون شرعاً بالإصلاح في الأرض، وعدم الإفساد فيها، وأعلى مظاهر هذه الإصلاح هو بناء الإنسان، وتقويم أخلاقه، حتى يكون عنصراً فاعلاً في إعمار الأرض، والمحافظة عليها، والتعامل مع كل ما فيها من كائنات وجمادات بالضوابط الشرعية، وهذا الإعمار هو مجال من مجالات الابتلاء للمؤمنين، ليميز اللهﷻ به الخبيث من الطيب، ويجازيهم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

---

[8] - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط3 - 1414 هـ، 606/4.

[9] - معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، دار النفائس، ط2، 1408 هـ - 1988 م، ص321.

[10] - ينظر: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م، 274/1.

المطلب الأول: عمارة الأرض بين الإنسان والكائنات الأخرى

أولاً: عمارة الأرض أمر فطري للكائنات غير العاقلة:

أشارت بعض آيات القرآن إلى أن اتخاذ الأرض مأوى، وعمارتها، هو أمر فطري تشترك فيه جميع الكائنات، فكلها تحتاج إلى مكان يأويها، ويحفظها مما يؤذيها من كائنات أخرى، أو تقلبات المناخ، أو ظروف الطبيعة القاسية، ولذلك ذُكر في القرآن الكريم نماذج لتلك الكائنات التي اتخذت أماكن تسكنها، وتحتمي بها من المخاطر منها على سبيل المثال:

النحل، فقد قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل: 68].

وكذلك النمل، حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[النمل: 18].

وأيضاً من هذه المخلوقات العنكبوت الذي قال عنه تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 41].

ثانياً: الأمر بعمارة الأرض والاستخلاف فيها منّة و ابتلاء للإنسان:

إن عمارة الأرض بالزراعة والانتفاع بما في باطنها من معادن مطلوب من الناس عامة، ومن المسلمين خاصة، وهو من مقتضيات الاستخلاف العام للناس في الأرض قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[البقرة: 30] .

وكان قصد عمر بن الخطاب ﷺ من ضرب الخراج أن تبقى الأرض عامرة بالزراعة فأهلها أقدر من الغانمين على ذلك؛ لتوفر الخبرة والقدرة على الزراعة؛ ولذلك قال في أهلها: يكونون عمار الأرض فهم أعلم بها وأقوى عليها[11].

وقد سلك عمرﷺ في ذلك مسلك النبيﷺ فلما فتحت خيبر وصارت الأرض والأموال المغنومة تحت يده ولم يكن له من العمال ما يكفون عمارة الأرض وزراعتها، دفعها إلى أهلها على أن يزرعوها ولهم نصف ثمرتها. وبقيت على ذلك طيلة حياة النبيﷺ وحياة أبي بكر الصديقﷺ حتى أجلاهم عمرﷺ إلى الشام[12] .

وقد امتن المولىﷻ على عباده بأن هيأ لهم الأرض، وجعلها صالحة لمعاشهم، وسخر لهم كل ما فيها من خيرات، وذلك في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}** [النحل: 80]، وهذا في معرض الامتنان عليهم، بأن سخر لهم هذه الأشياء لتيسير معاشهم، والرفق بهم في حلهم وترحالهم.

وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك:15]

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 14].

وأيضاً قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} الحج: 65.

---

[11] - ينظر: الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، ط3، 1382هـ، ص 141.

[12] - ينظر: كتاب الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق: أبو أنس سيد بن رجب، دار الهدي النبوي (المنصورة) - دار الفضيلة (الرياض)، ط1، 1428 هـ - 2007م، 117/1.

كل هذه الآيات تشير إلى تسخير اللهﷻ لكل ما في الأرض وجميع خيرات البحار من أكل وحليّ، والفلك كذلك مسخرة لخدمة الإنسان الذي كرمه على سائر مخلوقاته، ليقوم بواجب شكره لله ﷻ، وتحقيق عبادته لخالقه على الوجه المطلوب منه.

إعمار الأرض ابتلاء للإنسان.

وإن كان الشأن في بقية الكائنات أن إعمار الأرض واتخاذها مأوى أمر فطري جبلي، فهو في حق الإنسان منّة من الله تعالى، فقد سخر له المولى ﷻ جميع ما فيها، وذللها له، كي يستفيد من خيراتها، وينعم بمقدراتها، ولكن لحكمة عظيمة حتى لا يطغى الإنسان في الأرض ويتجبر فيها، ويفسدها جعل المولى ﷻ هذا الاستخلاف نفسه ابتلاءً واختبارًا لإيمانه وأخلاقه، وذلك في نصوص كثيرة نذكر منها:

قوله تعالى: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 129]

وقوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس: 14].

وكذلك قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: 7].

وهذا أيضاً مجال من مجالات الاختبار والابتلاء للمكلفين في هذه الحياة الدنيا؛ حتى لا يتركوا هملاً فيعيثوا في الأرض فساداً، ورتّب على هذا الأمر الثواب للمصلحين، والإثم والعذاب للمفسدين.

المطلب الثاني: شروط عمارة الأرض والاستخلاف فيها:

من خلال النظر في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يمكن وضع ضوابط وشروط للاستخلاف المأمور به، والذي تترتب عليه الآثار المرجوة منه، وتتمثل تلك الضوابط والشروط في النقاط الأتية:

1. **عدم الإفساد بجميع صوره وأشكاله، ومنه إهلاك الحرث والنسل:**

قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف:74]

وأخبرﷻ بأنه لا يحب الفساد فقال: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: 502]، وفي هذا أبلغ الزجر عن الإفساد في الأرض.

و(عن أبي الطفيل، قال: قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسرَّه إليك رسول الله ﷺ، فقال: ما أسرَّ إليَّ شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى مُحدِثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير تخوم الأرض - يعني المنار-)[13].

« المُحدِث: هو من يأتي بفساد في الأرض، وتخوم الأرض معالمها وحدودها، واحدها تخم، وقيل: أراد بها حدود الحرم خاصة، وقيل: هو عام في جميع الأرض، وأراد المعالم التي يهتدى بها في الطرق، وقيل: هو أن يدخل الرجل في ملك غيره فيقتطعه ظلماً، ويروى تخوم الأرض، بفتح التاء على الإفراد، وجمعه تخم بضم التاء والخاء»[14]، واللعن بمعنى الطرد من رحمة الله، وناهيك بها عقوبة لمن عمل مثل هذا العمل، وهو من أخف الإفساد في الأرض، إذ مقتضاه أنَّ صاحبه غيّر العلامات التي يهتدي بها الناس في الأرض المقطوعة، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى كما في قوله

[13] - المسند، أحمد بن حنبل، رقم الحديث 855، 212/2.

[14] - النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، 183/1-184.

تعالى : {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ} [الإسراء: 23]، فإن الله ﷻ نهى عن التأفيف للوالدين، فما فوق ذلك أشد حرمة كالضرب وغيره.

2. عدم الترفُّه والكِبروالطغيان:

قال تعالى: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: 149].

وهذا كان في معرض دعوة سيدنا صالح –عليه الصلاة والسلام- لقومه، فقد عاتبهم بأنهم يُسرفون في البنيان، وينشغلون به عما خلقوا من أجله، بل يطيعوا أمر المفسدين، ولا يستمعوا لأوامر خالقهم جلا وعلا، فقال تعالى، على لسان سيدنا صالح -عليه الصلاة والسلام-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} لشعراء:[150_152] و(عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ فَرَأَى قُبَّةً مُشْرِفَةً فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَذِهِ لِفُلَانٍ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَسَكَتَ وَحَمَلَهَا فِي نَفْسِهِ حَتَّى إِذَا جَاءَ صَاحِبُهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ فِي النَّاسِ أَعْرَضَ عَنْهُ، صَنَعَ ذَلِكَ مِرَارًا، حَتَّى عَرَفَ الرَّجُلُ الْغَضَبَ فِيهِ وَالْإِعْرَاضَ عَنْهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُنْكِرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: خَرَجَ فَرَأَى قُبَّتَكَ، قَالَ: فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى قُبَّتِهِ فَهَدَمَهَا حَتَّى سَوَّاهَا بِالْأَرْضِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ يَرَهَا، قَالَ: «مَا فَعَلَتِ الْقُبَّةُ؟» قَالُوا: شَكَا إِلَيْنَا صَاحِبُهَا إِعْرَاضَكَ عَنْهُ، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَهَدَمَهَا، فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا مَا لَا، إِلَّا مَا لَا» يَعْنِي مَا لَا بُدَّ مِنْهُ)[15].

3. عدم استغلال هذا الاستخلاف، وما سخره الله لعباده في ارتكاب الفواحش والذنوب.

فقال تعالى: {ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [غافر: 75_76]

وقال تعالى: {[وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور} [لقمان:18]

جعل المولى ﷻ الفرح في الأرض بغير الحق، والمرح فيها من مظاهر الكبْر الذي يورد صاحبه المهالك، فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)[16].

4. عدم التعلق بمتاع الدنيا والركون إليها، وترك الجهاد والدعوة إلى الله:

قال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} [التوبة: 38]، و(عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه)[17].

5. **إقامة العدل، والالتزام بشعائرالله، وتحقيق عبوديته على أرضه**، وقد ورد ذلك في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[الحج: 41]

---

[15] سنن أبي داود، أبو داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، رقم الحديث5237، 360/4.

16 - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، رقم الحديث 91، 93/1.

[17] - مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، رقم الحديث 5007، 51/9.

وكذلك قوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 77].

وكذلك قوله تعالى: {يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ص: 26].

المطلب الثالث: عقوبة الإفساد في الأرض

- قد تصل عقوبة الإفساد في الأرض إلى القتل، وقطع الأطراف أو النفي، مع ما ينتظر المفسدين من عقوبة عظيمة في الاخرة إذا لم يتوبوا:

فقال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: 33].

- وربما تكون العقوبة الاستبدال، ونزع سلطانهم، وتمكين قوم آخرين:

قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام:6].

قال تعالى: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم:14].

- وقد تكون اللعن والطرد من رحمة الله:

{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد: 25].

المطلب الرابع: آثار عمارة الأرض

- **القرب من الله، وعدم الإبعاد:**

قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف:56].

فالإصلاح في الأرض وعدم الإفساد هو مظهر من مظاهر الإحسان، فقد قال – ﷺ – في الحديث الذي يرويه (شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)[18] ، والمحسن قريب من رحمة الله ﷻ.

قال تعالى: {قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا } [الكهف: 94]. فهؤلاء المفسدون في الأرض (يأجوج ومأجوج) جُعل بينهم وبين بقية الناس سدا عظيما، لمنع شرهم، وكف أذاهم، وهذا ما ينبغي أن يحصل لكل مفسد في الأرض، أن يعاقب بالإبعاد عن الناس حتى يأمنوا من شره.

- **التمكين في الأرض:**

قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: 5و6].

[18] - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، رقم الحديث 1955، 1548/3.

- **نجاتهم من عذاب الله في الدنيا:**

فإن الله وعد المصلحين في الأرض، والذين يقيمون العدل فيما بينهم – وإن كانوا كفاراً- باستقامة أمورهم في الحياة الدنيا، ورغد عيشهم فيها، ونجاتهم من الهلاك، فقد قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: 117] وفُسِّر الظلم هنا بأنه الشرك، لقوله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13].

- **المنزلة العالية عند الله:**

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[ص: 28].

- **وسيلة من وسائل التملك:**

فقد شرع الإسلام عدة وسائل للتملك، من بينها إحياء الأرض الموات، تحفيزاً للناس على إعمار الأرض وعدم إهمالها، لما سيعود بالنفع على الناس كافة، فقد قالﷺ: (من أحيا أرضا ميتة فهي له. وليس لعرق ظالم (حق)، قال يحيى: قال مالك: والعرق الظالم كل ما احتفر أو أخذ أو غرس بغير حق)[19].

ومما سبق يتبين أن إعمار الأرض وإصلاحها، والاستفادة بما خلقه اللهﷻ من خيرات فيها، هو من مفهوم إسلامي: نظام كامل، وليست نصوص مبعثرة، وضعت منبتة عن بعضها البعض، بل إنها في مجموعها تسير نحو غاية واحدة، وتحقق أهدافاً مشتركة، وكان لهذا النظام ضوابط وشروط حتى لا يحيد عن غايته، ولا يؤثر في الغاية السامية من خلق الإنسان وإيجاده على هذه الأرض.

[19] - الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان، - أبو ظبي – الإمارات، ط1، 1425 هـ - 2004 م ، رقم الحديث: 2750، 1076/4.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد على آله وصحبه أولي المناقب والهيئات، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإنه بعد هذا التطواف بين نصوص الكتاب العظيم، وسنة سيد المرسلينﷺ، في معالجة هذه المسألة التي بين أيدينا وهي إعمار الأرض، يمكن تسجيل النتائج الأتية:

- اهتم الإسلام بعمارة الأرض، وجعل ذلك ابتلاء للإنسان واختباراً له، مع ما امتنَّ به المولىﷻ عليه من تسخير كل ما في هذه الأرض من خيرات، وما تحويه من مخلوقات لمصلحته؛ فذللت له دوابها، وهيئت له أسباب العيش فيها.
- إن إعمار الأرض يشكل نظرية متكاملة، بشروطها وضوابطها، وبيّنت النصوص أساليب ذلك الإعمار عند الأمم السابقة، ومدحت بعض تلك الأساليب وذمت البعض الآخر، لكي يسلك المؤمنون طريق الذين أنعم الله عليهم بالهداية، ويجتنبوا طريق أهل الغواية.
- تشترك جميع الكائنات في مبدأ إعمار الأرض، غير أن بقية الكائنات – عدا الإنسان – يعد هذا الإعمار في حقها أمراً جبليّاً فطريّاً.
- نهى الشرع الحكيم عن الإفساد في الأرض بجميع صوره، ومن أضرها إفساد الإنسان إذ به إعمار الكون.
- على الرغم من أن الإسلام حثَّ على إعمار الأرض، إلا أنه نهى المؤمن عن التعلق بالدنيا والركون إليها، والعمل للآخرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة.
- من أوضح مظاهر إعمار الأرض إقامة العدل، والالتزام بشعائر الله، وتحقيق عبوديته على أرضه.
- رتّب الشارع عقوبات كبيرة على المفسدين في الأرض، تنفيراً للناس من هذا السلوك، وفي الوقت نفسه وعد المصلحين بالتمكين في الأرض، والنجاة من عذابه في الدنيا حتى وإن كانوا كفاراً، ووعد المؤمنين منهم بالقرب منه، ونيل الدرجات العلى يوم القيامة.

وفي نهاية هذه الورقة أوصي طلاب العلم والباحثين ببذل المزيد من الجهد في الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم، هذا المعين الذي لا ينضب، وتعميق الدراسة حول ما حواه هذا الكتاب العظيم من نظريات ونظم، تُصلح حياة الناس، وتزيدهم يقيناً وإيماناً بدينهم، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

المصادروالمراجع

1. كتاب الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق: أبو أنس سيد بن رجب، دار الهدي النبوي (المنصورة) - دار الفضيلة (الرياض)، ط1، 1428 هـ - 2007م.
2. الجامع الصحيح، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ
3. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م.
4. الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، ط3 عام 1382هـ.
5. سنن ابن ماجه، ابن ماجة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط1 1430 هـ - 2009 م.
6. سنن أبي داود، أبو داود،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
7. سنن الترمذي، محمد بن عيسى، الترمذي، تحقيق:أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ 4، 5)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395 هـ - 1975 م.
8. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.